

الفعل التواصلي في العمارة

صلاح الدين ياسين

مهندس معماري

د. مؤمل علاء الدين

أستاذ مساعد

المخلص

متعة العمارة لا تنتج عن غياب قوانينها بل في خرقها وعلى المرء ان يدرك بأن اللغة ليست مادة جامدة كالحجر. إذ انها من مبتكرات الانسان وعليه فانها مشحونة بالإرث الحضاري للمجموعات الثقافية لكنها لا تبني إلا بالاختلاف ... شهدت الآونة الأخيرة تغييرات واضحة في الفكر واللغات التعبيرية التي تجسدها نحو بناء سبل جديدة للفهم والتفاهم بين البشرية وظهرت طروحات فلسفية متعددة ركزت على ثورة المختلف في بنية خطابها الفلسفي ومنها نظرية الفعل التواصلي ليوركن هابرمارز فهي تركز الى قراءة جديدة للفلسفة الاجتماعية الغربية لدى أقطابها الحديثين ، لأن الحداثة لدى هابرمارز ليست سوى تحقيق لنظرية الفعل التواصلي.

فالتواصلية تتطلب نوعا من المشاركة في عملية الفهم ، أي في جعل الفهم يصير تفاهما أما التداولية فهي تستخدم أنظمة اتصال قائمة فعلا لتسويق الخطاب الجديد لما يجعله قديما. بالرغم من ظهور اللغات التعبيرية المعمارية المتنوعة ومحاولتها لتحقيق أشكال من التواصلية إلا أنها استندت في طروحاتها على صيغ تداولية بالتالي فقدت هيمنتها أو أنها تجاوزت الأفق فأحدثت الانقطاع.

أن غياب الإطار النظري الشمولي لتعريف التواصلية كإستراتيجية إبداعية واختلافها عن التداولية والانقطاع كان الحافز الأساسي لقيام البحث بالطروحات التي وصفتها لم تبلور أطر واضحة ولم يتم الوصف بضوء أسس شاملة وموضوعية ، وبضوء هذا النقص المعرفي تحددت المشكلة البحثية (بعدم وضوح مفهوم التواصلية كإستراتيجية إبداعية في العمارة) وتمثل تصور شامل ودقيق لمفهوم التواصلية كإستراتيجية إبداعية في العمارة). ولتحقيق هدف البحث حدد المنهج بمرحلتين :

- استخلاص تعريف المفهوم من الدراسات المعمارية والادبية وتحديد مؤشرات الفعل التواصلي عبر سلسلة من العمليات البحثية شملت مقارنتها بالتداول والانقطاع من جهة والشعرية من جهة أخرى.
- استخلاص الاطار النظري للمفهوم بضوء استكشاف التصورات المعمارية السابقة والتي تبلورت في اربعة مفردات أساسية وهي : (تلوين الفكر ، الإستراتيجية المعتمدة في خرق القوانين المتداولة ، صيغ التفرد ، اسلوب الاقتناع والتفاهم).

- استوجب بناء الاطار الذي يصف المفهوم سلسلة من العمليات البحثية ابتدأت باستكشاف الاطر النظرية في الطروحات المعمارية السابقة ومن ثم بلورتها بمفردات أكثر دقة وشمولية وعموما الاستنتاجات النهائية تمحورت حول نقطتين :
- الاستنتاجات المرتبطة بتعريف المفهوم ومؤثراته.
- الاستنتاجات المرتبطة بالإطار النظري والتي تركزت على فاعلية الإطار المطروح ومقارنته بالمعرفة السابقة.

المقدمة

فالتراث يفرض على الاجيال التواصل معه قبل الانفتاح على أية معطيات جديدة ومما لاشك فيه أن الخبرة والتجربة السابقة هي المعيار التقويمي الذي يختار ويحدد ويميز (يقبل أو يرفض) الشكل المعطى بكونه جديدا أو مرفوضا ، أن نكران المختلف يستبعد كل تواصل مع المرفوض والغريب واللامسيطر . فاللامعقول هو معقول بصورة ما بالنسبة للحدود القصوى التي يتحرك ضمنها المشروع . انه يشكل النقيض المؤقت للمعرفة الجاهزة فالتداولية تمنع المختلف ولا تقبل إلا بالتمذجة في مجال الفكر والتقييم والممارسة ، في حين يتطلب الفعل التواصلى تحطيم دوائر الانغلاق وخرق قوانينها المتداولية (الصفدي/ 92 ص205).

التداولي - التواصلى :

اللغة نسيج من الاشارات ذات الدلالات المتميزة متقابلة ومتشابهة معا بيد انها لا تبني الا بالاختلاف وتتأرجح بين نوعين من القوى حيث يقول دارمسييه (1886) :

أن اللغات في تطور مستمر وهناك نوعين من القوى تؤثر عليها ، القوى المحافظة التي تحاول الإبقاء على سلامتها ، في حين أن القوى الثورية تدفعها في اتجاهات جديدة تزيحها نحو حدودها القصوى وتحاول العمل على استحداث معان جديدة ... فالحقبة الكلاسيكية تتسم بوجود منظومة معينة من الاشارات المتعارف عليها اجتماعيا (تداولية) ككون الاشارات تقليدية وبالتالي متوقعة نسبيا وهذا ما جعلها تلعب دور القوى المحافظة في عملية التطور للمنظومة التعبيرية (بونتا 1996 / ص49).

في حين ركز (ارنست كاسير) قائلا : ان استمرارية تطور الانسان تنشأ عن وجود حالة شد يبين

العمارة نتاج حضاري يعبر عن الفكر السائد مكتشفا المبادئ والمعتقدات من خلال ستراتيديات بناء المعاني ، وان اتصال هذه المبادئ يستلزم وجود قنوات تواصلية تعكس حاضرها وتنتمي الى ماضيها ... وقد ظهرت في الأونة الاخيرة طروحات معمارية متعددة ناقشت كيفية الاتصال والتواصل عبر لغاتها التعبيرية المتنوعة وكذلك طروحات فلسفية ركزت على ثورة المختلف في بنية الخطاب الفلسفي ومنها نظرية (الفعل التواصلى) لبوركن هابرماس .

فهذه النظرية هي اعادة اكتشاف مسار العقلانية في آفاقها النظرية وتقييم النتائج الابداعية واعتبارها محاولات نظامية وتنظيمية لتحقيق أشكال من التواصلية ... هذه النتائج عملت على أن تقيم في ذاتها وسائط جديدة بين العقل والعالم من اجل فهمه وتسهيل التفاهم بين البشر أنفسهم. إذ أن التفكير بالمختلف المتعاير يتطلب تغييرا تكوينيا في طبيعة التواصل ... فالتواصلية تتطلب اعادة اقتران جديد بين نسق الافعال ونسق القيم ، أما التداولية فهي لغة المعلومات الجاهزة القابلة للاستخدام وتعتمد على قوانين التعميم والتقليد والاشاعة والتمثيل وذات سلطات خاصة تستغني عن عامل الاقناع العقلي الكامن في المعلومة ، ولا تهدف الى معرفة الاشارة وجعلها تنطق بدلالاتها ... انما المهم هو حركة ارتجاعها المستمر الى اشارة أخرى.

وبالرغم من ان هابرماس يعتبر التراث القاعدة التي تحقق تحت ظلاله التفسيرات والتوافقات التواصلية الا انه يؤلف ذلك القطب الآخر المحافظ الذي يريد أن يكبح كل الانحرافات الطارئة عن عملية التوافقات التواصلية الجارية حاليا (الصفدي/ 92 ص211).

خارج هذا العرف وتجاوز حدوده (الجادر جي / 1995 ص210).

ويطرح مطاع الصفدي في دراسته (نقد العقل الغربي) توضيحا تفصيليا بين التداولية والتواصلية مستندا على نظرية الفعل التواصلية ليوركن هابرماس حين يقول :

ان بين التواصلية والتداولية ليس مجرد فرقا بالدرجة او المستوى بل ان الفعالتان تفتان على طرفي نقيض غالبا ، فالتداولية تعتمد على قوانين التميم والتقليد والاشاعة والتمثيل، ذات سلطات خاصة تستغني عن عامل الاقناع العقلي الكامن في المعلومة. فالمعلومة هي الفكرة التي فقدت برهانيتها الخاصة واستندت الى سلطة خارجية تبيحها أو تشيعها ، في حين أن فكرة التواصلية تشكل خرقا للانظمة المعلوماتية السائدة ، فالشمولية تأتي من مصداقية الفكرة في حد ذاتها ، من قوة اقناعها بينما العمومية تستهدف الكمية والمجموع ، الاولى تؤسس الفعل التواصلية بينما تلغيه الثانية حين تحرفه وتستهلكه.

من خلال ما طرح في الدراسات السابقة يمكن التمييز بين التداولية والتواصلية بما يلي :

التداولية : لا تعني الايصال الا ما هو موصا وواصل مقدما ، انها لا تنقل الدلالة لكنها تتطلب فعلا ما سبق للحس العام ان أقره وقرره ودعم صلاحيته للشيوخ والتداول. فمهمة الكلام في الصيغة التداولية لا تحقق التفاهم أو التواصل بقدر ما كان ترجمة مسبقة أو لاحقة للمنظومة السلوكية السائدة.

التواصلية : عمل لا معياري على البنية المعيارية التي تحافظ على جوهر الموروث من حيث التحرير المستمر للقيمة من انظمتها القياسية ، ولا يمكن ان تقوم دون الاستناد الى مجموعة من المعايير والنماذج وقواعد السلوك والتفاهم ، لكن هذه المجموعة تؤلف عادة طبقة غير مرئية من السلوك العام.

قوى التثبيت وقوى التغيير ، أي بين النزوع الذي يقود الاشكال ونظم ثابتة ونزوع آخر لكسر هذا الثبات والانسان دائما مشدود بقوى هذين الاتجاهين ، فاحدهما يسعى للحفاظ على الصيغ القديمة ، والآخر يعمل على انتاج صيغ جديدة ، هذه الثنائية موجودة في كل مجالات الحضارة الانسانية ، وما يختلف في المجالات المتخصصة هي نسب تأثير عوامل التغيير والثبات فقط (رزوقي / 1996 ص60).

ويطرح امبرتو ايكو في (Opera Apert) ما يلي : كان الفن الكلاسيكي يمارس نوعا من الاعتراض على النظم التقليدية داخل حدود معروفة تماما ، اما الفن المعاصر فانه يشمل خاصية جوهرية هي الافتراض الدائم لنظم غير متوقعة بالنسبة لما يسبقها ، أي انه بينما كان الفن الكلاسيكي يقوم بادخال حركات اصيلة داخل النظام اللغوي الذي يحترمه اساسا ويحافظ على قواعده ، فان الفن المعاصر يمارس اصالته باقتراح نظم لغوية جديدة تشمل قوانين مستحدثة ، وهكذا يمارس باستمرار حركة بندولية تتأرجح بين رفض النظام اللغوي والمحافظة عليه ويتولى الشعراء خلق أنماط جديدة من النظم اللغوية بادخال أشكال من الغموض المنظمة داخل النظم القائمة ليزيدوا من امكاناتها الاعلامية (د.صلاح فضل 1987 ص375).

ويشير الاستاذ الجادر جي : بان الابداع في مجال العمارة هو ذلك الجهد الفكري والتلقائي الذي تكتمل حصيلته باستحداث قيم واشكال جديدة اضافة الى الخزين القائم او الفعال منه ، أي الاسهام في تكوين الخزين للقيم القائمة ... مما يجعل ما هو قائم منها في حالة تغير ديناميكي اذ قد يتحقق الابداع حصيلة لتفاعل او تأثير خارجي أو تأثير داخلي.

وعندما يعجز العرف القائم عن تأمين مرجع مشترك يتمكن بموجبه افراد المجتمع من الاتصال فيما بينهم عند ذاك يسعى الافراد الى استحداث قيم جديدة

فالحداثي متميز بالمختلف وهو متصل بالحدث من حيث علاقته بسببولة التاريخ تتابعيا ولكنه منفصل تزامنيا ، وان ما يميز انفصاليته هو الإنزياح النوعي نحو خصوصية الحالة والتجاوز نحو الأعلى أو الانزياح الى مكان آخر بالنسبة لمكان الديمومة المتداولة. ومن أجل الحفاظ على اختلافية الحداثة وانزياحياتها فإنها تقتلع (Dislocate) كل شيء منتظم وتشيع نموذجها وتؤكد انفصاليته باستمرار .

هنا ينبغي ادراك اللغة كأداة أمر أكثر من كونها أداة فكر (اقناع ، فهم وتفاهم). فمن الخطأ الاعتراف بذلك التعريف التقليدي للغة بكونها أداة تفاهم. فما يتفاهم حوله المجتمع ليس هي الدلالات الخالصة بل هو شبكة من أوامر الفعل والنهي والتوجيه . ذلك ان التداولية لا تعني الايصال الا ما هو موصل وواصل مقدما.

ومن هنا تكشف الحداثة ان المتداولة شبكة أمرية اعلامية حيث انها تغلق الحقل الدلالي وتصادر حرية الوعي وينبغي التمييز بين الخاصية الامرية والخاصية المعيارية ، فالمعيارية تنقل التراث من حالته غير الحاضرة الى وضع الحضور والراهنية ، وبذلك تصل تجربة الماضي بتجربة الحاضر ، أما الخاصية الامرية فهي تأتي ضمن النمذجة تمارس فعل القسر بالرفض أو القبول. (الصفدي / 92 ص 193) فالمختلف يتخطى اشكالية الزمان والمكان حيث انه يخترق منهجية التجاور والتفاصيل المكاني وكذلك منهجية الديمومة والتواصل في إبراز فرادته وحدثه الخاص.

والاختلاف يمثل مفهوم مكاني حيث تتولد الاشارة من نسق من الاختلافات التي تنتظم في داخل النسق في حين الاختلاف أو التأجيل يعني مفهوم زمني تفرض فيه الدوال عملية تأجيل لا تنتهي للحضور.

فالأشياء متفاصلة في المكان كما الاحداث متفاصلة عبر الزمان ، فينبغي تعريف الزمان كونه

وهي خرق للانظمة المعلوماتية السائدة حيث تأتي الفكرة من منابر وقنوات مختلفة ومتغايرة تستند على عامل الاقناع العقلي الكامن في المعلومة وتأتي مصداقيتها وشموليتها من قوة اقناعها وهي تسير عكس النمذجة التكرارية المألوفة.

أن غياب الاطار النظري لتعريف التواصلية كإستراتيجية ابداعية واختلافها عن التداولية والانقطاع كان الحافز الاساسي لقيام البحث بالطروحات التي وصفتها لم تبلور اطر واضحة ولم يتم الوصف بضوء اسس شاملة وموضوعية وبضوء هذا النقص المعرفي تحددت المشكلة البحثية بـ (عدم وضوح مفهوم التواصلية كإستراتيجية ابداعية في العمارة) وتمثل هدف البحث طرح تصور شامل ودقيق لمفهوم التواصلية كإستراتيجية ابداعية في العمارة.

ولتحقيق هدف البحث حدد المنهج بمرحلتين :

- استخلاص تعريف المفهوم وتحديد مؤشرات الفعل التواصلية عبر سلسلة من العمليات البحثية شملت مقارنتها بالتداول والانقطاع من جهة والشعرية من جهة أخرى.
- استخلاص الإطار النظري للمفهوم بضوء استكشاف التصورات المعمارية السابقة وبلورتها بمفردات أكثر دقة وشمولية.

الاختلاف والحدث

يعتبر دي سوسير بان مصدر المعنى في اللغة هو الاختلاف ويمكن تمييز أي إشارة نتيجة اختلافها عن بقية الإشارات. فاللغة تتألف من نسج متشابك ومتفاصل من الإشارات الدالة المتميزة إلا إنها لا تبني إلا بالاختلاف والاختلاف يفردن الحدث. والحدث الزمني متصل من حيث انتمائه الى نوعه ومختلف من حيث حدثه الخاص وفرادته.

في خلق النتائج. أما آليات بناء الشعرية فأنها تعتمد على التجاوز والانحراف والانزياح على المؤلف لخلق حالة جمالية بعملية التلقي ، وبالتالي يمكن استثمار هذه الآليات في تحقيق التواصلية.

فالتواصلية ترتبط بالشعرية من حيث خرقها للقوانين السائدة لكنها تختلف عنها من حيث اعتمادها على عامل الاقناع العقلي الكامن في المعلومة وسبل بنائها ، فالتواصلية هي أداة فكر لطرح مواقف فكرية جديدة ما يؤدي الى انبعاث لغات تعبيرية جديدة ، أما الشعرية فهي تطوير للغة التعبيرية السائدة بهدف طرح جانب جمالي في عملية التلقي.

لاشك أنه لا يمكن للفرد أن يخترع لغته الخاصة ، قد يستطيع ذلك صاحب الفكر أو الفن ، والعمل الإبداعي أشبه ما يكون باكتشاف حقيقة علمية ، فكما تقلب هذه الحقيقة نظاما معرفيا في العلوم (الفيزياء والكيمياء) ، هكذا فالفعل المبدع يتطلب خرقا في الأنظمة السائدة وهذا يشير بأن اللغة المتداولة لم تحتكر الفكر وعليها الاعتراف بكونها نوعا من أنظمة الأخلاق السائدة أمام اختراقات الإبداع والاختراع.

فهذه الاختراعات تمثل نقطة الانقلاب والتحول في الانساق والاساليب في الفن والعمارة فيتحرر المصمم من كل القواعد والاعراف ويقدم منظورا لحالة مستقبلية تؤدي بعد تدعيمها بإسهامات أخرى الى تأسيس نظام معرفي أو جمالي جديد يختلف جذريا عما سبقه. وعلى سبيل المثال تعتبر معالجة برنولسكي لقبة سانت ماريا ديل فيوري في فلورنسا كنقطة تحول تجاه عمارة النهضة وكذلك الأعمال الأولى في العمارة الحديثة مثل نصب أشتاين لاريك ماندلسون وأعمال زهاء حديد التي طرحت أعرافا كان مسلما بها في الماضي وأصبحت نقطة انقلاب نحو عمارتها المسماة بد (ضد الجاذبية الأرضية) (رزوقي / 1996 ص86).

ديمومة الانفصال أو اتصال المنفصل ، فكل لحظة تجهض اللحظة التي تسبقها بالتالي مع قوة اتصالها إلا أنها منفصلة ، أما المكان فيعني الاحتواء والامتداد فهو منفصل ولكن امتداده متصل (منفصل باحتوائه ومتصل بارتباطاته).

فالزمان والمكان هما صورتين لشيء واحد يختلف بينها شدة الاتصال والانفصال ، فلو تخيلنا الكينونة أو الواقع عن شريط سينمائي ... فاللقطة الواحدة هي المكان (توقف الزمن) وعندما يتحرك المكان يحصل الزمان ، والفعل الحدائوي نعني به فكر المختلف فليس ثمة حداثة إلا بوجود حدث (من وعائها الزمني والمكاني) الذي يفترض امتدادا من الماضي وانقطاعا عن سيولتها وإلا يصبح تكرارا وتدخّل في منطقة النمذجة.

نستنتج مما سبق بأنه رغم جدة الصور التي أنت بها العمارة الحديثة إلا أنه فقدت حداثتها بتكرار نماذجها ودخولها منطقة النمذجة لذلك ظهرت ما بعد الحداثة.

الشعرية والتواصلية

يطرح انتوننيادس في كتابه (Poetics of Architecture) توضيحا لكلمة الشعرية حيث استعملت من قبل الفلاسفة لمخاطبة جماليات الكون ، ذلك أن مصطلح (Poetics) مشتق من فعل إغريقي (Poesis) وهو يعني (To Make) ولا يعني الشعر بل أشكال الخلق ، والشعر هو أحد أشكال لخلق عبر الكلمات ، وبالتالي هناك نوع من التداخل بين الشعر والشعرية .. ويعرفها د. الغدامي بانها : جمالية الشيء وطاقته التخيلية (الشيخلي / 1998 ص24) وبهذا فان الشعرية كما جاءت في دراسة الشيخلي هي :

(الخلق الذي يخاطب جماليات التكون وطاقته التخيلية) فالشعرية هي صفة للنتاج وهي صفة للاستلوه

وهي توفر لنا فهما دقيقا لعملية التغيير واستمراريتها وان الفة العمل الجديد هي نتيجة حتمية للابتعاد القليل عن نقطة البدء بمعنى أن الانزياح البسيط عن نقطة البدء يولد أعمالا مألوفة تداولية في حين أن الانزياح الأكبر يدرك كاختراع وابتكار وهو الابتعاد عن الأصل بطريقة تواصلية للوصول الى نقطة الانحراف. فالمعمار لو كوربوزيه يستغل موديل معروفًا وبزيحه نحو خصوصية الحالة للابتعاد عن الحلول المتداولة وتحقيق التواصلية من خلال تعدد المعاني المرتبطة بالأصالة.... فالأثر والأصالة في أعماله يكبح التغييرات الجانبية ويحاول إيجاد الجديد والمختلف وأحيانا اللامعقول لإيصال فكرته الى المتلقي عبر صيغ تفاهمية جديدة (Brawne / 1992 ص78).

أما مارك ويكلي فيعرف الازاحة في كتابه (Architecture of Deconstruction) بانها خرق للقوانين المتداولة بغية تحقيق المختلف الابداعي ويقول بان الازاحة في التفكيكية هي شكل استفهامي الذي يهز الهيكل لكشف ضعفه الهيكلي ويضعه تحت الضغط ويسلط القوى عليه ويفتح حدوده لرؤيات جديدة تحت اجهاد مبهم فتصبح هذه الحدود شواهد ويصبح هيكله مرئيا عن قيود التقاليد الحضارية فالهيكل لا يشبه الهيكلية المعتادة (Weigley / 1996 ص35).

أما الاستاذ رفعت الجادري فيقول في كتابه (حوار في بنوية الفن والعمارة) ان لدعوة للتنوع دون تعيين المرجع المشترك لدلالة الموحيات والمعالم او الدعوة لتنوع مطلق ومفرط يؤدي الى فقدان دلالية الموحيات وفي النتيجة الغاء الحوار بين المصمم والمتلقي وبهذا يتعذر التواصل الفكري وتصبح المعاني خالية من المعنى بحكم فقدان المرجع المشترك ويحدث الانقطاع (الجادري / 1995 ص61-62).

ويقول د. صلاح فضل : أن اللجوء الى منطقة اللاشعور يؤدي الى متاهات كبيرة تتردد بين حتمية ما

هدف التواصلية : إيجاد وسائل جديدة لإيصال الفكر والذي يتطلب وعيا وتفاهما وصرف جهد ذهني من قبل المتلقي (تطوير وسائل الفهم والتفاهم بين البشر).
هدف الشعرية : طرح حالات جمالية بعملية التلقي والذي يتطلب انفعالا ذهنيا للمتلقي وصرف جهد ذهني لاكتشاف مكامن الجمال في بنية العمل.
أثر الإزاحات على التواصلية :

التواصلية تعتمد على الازاحة وهي الانتقال من حالة الى أخرى ، فيعرفها الجرجاني قائلا : (التغيير هو كون الشيء بحال لم يكن له قبل ذلك أو هو انتقال الشيء من حالة الى أخرى فمن التغيير ما يكون في الجوهر وهو الذي يسمى الكون المطلق والفساد المطلق ، ومنه ما يكون في الكيف وهو الذي يسمى استحالة ، ومنه ما يكون في الكم وهو الذي يسمى نموا ونقصا ، ومنه ما يكون في المكان وهو الذي يسمى انتقالا ، ومنه ما يكون في الزمان وهو الذي يسمى تتابعا فاذا تغيير الشيء في ذاته دفعة واحدة كان تغييره دفعا واذا تغييره في الكم أو الكيف أو في الأين شيئا فشيئا كان تغييره تدريجيا) (رزوقي / 1996 ص59) (المعجم الفلسفي ص311-312).

أما مايكل براون في كتابه (From Idea to Building) فيعرف الازاحة بأنها عمليات تحويرية مستمرة على النموذج المطروح حيث التغييرات تستمر لعدم وجود حلول مطلقة دائمية... واذا كان الحل التجريبي المؤقت مهيمنا لفترة ما فأن المشاكل اللاحقة ستؤدي الى خلق أنماط جديدة مختلفة وهذا ما يؤكد كارل بوبر في نظريته (Hypothetico Deductive Method).

P1 → Ts → EE → P2

الناتج(مشكلة أخرى) حذف الأخط حلول تجريبية مؤقتة مشكلة

ولغرض توضيح هذه المفردات تمت الاستعانة بالدراسات المعمارية والأدبية التي وصفت عملية خلق الناتج التواصلي لاستكشاف اطرها الكامنة ومن ثم بلورة طروحاتها بمفردات أكثر دقة وشمولية وتحديد أبرز الجوانب والنقاط التي يمكن اعتمادها في وصف خلق الناتج التواصلي وقد تضمنت تلك الدراسات ما يلي:

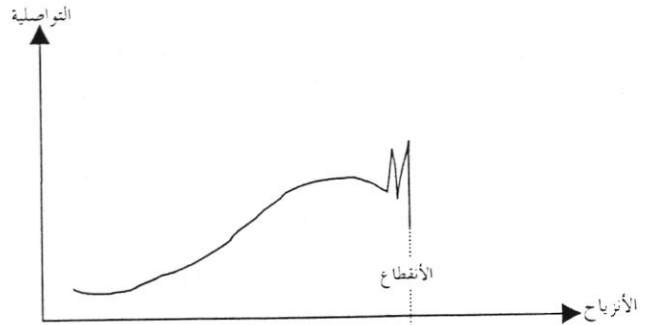
1- دراسة مايكل براون / 1992 / From Idea to Building

تشير هذه الدراسة بان الناتج المتوالي يحمل قدرا معينا من المعاني التي تأتي معظمها من أجزائها وعناصرها وليس شموليتها وهي مألوفة لدى المجتمع ، أما الابنية اللاتداولية (التواصلية) تتميز عن سابقتها في أي زمان و مكان كونها أكثر معانيا ومدلولية في محتواه الحضاري التي يمكن وصفها بعناصرها وشموليتها. والفرق بين الكاتدرائية والسقيفة لا تعني الاختلافات في المظهر الجمالي لهما بل في المحتوى التخاطبي لرسالتهما المعمارية وان معظم هذه الاختراعات والابتكارات تبدأ من شيء سابق وتنزاح الى ابتكارات جديدة ، فدرجة الانزياح هي المقياس الابداعي للعمل مع مراعاة المرجع السابق.

وتطرح الدراسة مفهوم الاختلاف والتميز مستندة على نظرية التطور (Evaluation Theory) حيث أن خلق الاشكال الجديدة يشتق من التغير التصادفي نتيجة لابتناق ونشوء طرز جديدة في أي وقت ممكن.

ركزت هذه الدراسة على جانب واحد من جوانب تحقيق الفعل التواصلي وهي الانزياح عن المتداول مستندا على المحتوى التخاطبي للرسالة المعمارية وسبل تحقيق التميز من خلال التكريف للاستعارة والانزياح وبذلك فأن التميز ينبع من البناء التخاطبي للرسالة.

وراء الطبيعة من ناحية وحتمية عوالم النفس من ناحية أخرى وكلا الامرين ينتهي بالشعر الى الايهام وفقدان عنصر التوصيل الذي يعد شرطا أساسيا في كل ما يقال أو يقرأ فلو فقد التوصيل ضاع القول وحدث.



شكل (1-1) يمثل العلاقة بين درجة الانزياح والتواصلية

نستنتج مما سبق بأن الانزياح عن الحلول المتوقعة والمتداولة هو الذي يحقق الفعل التواصلي مستندا على قوة المعلومة ومدى مقاومتها للدحض والتفنيد وعامل الاقناع الكامن فيها. إذ أن الانزياح بدون هذه الشروط يؤدي الى الانقطاع وبذلك يتعذر التواصل الفكري بين فئات المجتمع . وقد تدرك بعد الاعمال التواصلية كانقطاع بسبب عدم استيعاب الناقل ابعاد الظاهرة الجديدة تزامنيا ولكن بمرور الزمن (تتابعيا) وبعد دعمها بإسهامات أخرى فأنها تؤدي الى خلق نظم معرفية جديدة كما في نظرية (Hypersurfaces) المستندة على التلاعب السطوح لفرانك جيري وكذلك نظرية الانفصال (Disjunction Theory) لبرنارد جومي.

مفردات التواصلية

يتضح مما سبق بان الفعل التواصلي يتحقق من خلال ثلاثة مؤشرات وهي :

1. أسلوب الاقناع والفهم المتبادل (الاقناع الكامن في المعلومة).
2. قوة المعلومة وجدتها.
3. خرقها للأنظمة السائدة.

3- دراسة ايزنمان / Re working Eisenman : 93

تهدف هذه الدراسة الى طرح فكرة العمارة كـ (كتابة) كنفويض للعمارة كـ (صورة)، وهذه الفكرة تعطي شكلا استعاريا لفعل العمارة وهكذا فأنها تشير قراءتها خلال نظام الاشارات وهذا يسمى الاثر (Trace) فالأثر لا يمكن قراءته أدبيا لعدم امتلاكه قيم أخرى كي تؤشر الفكرة ... أي هناك حدث (قراءة) ... وهذه القراءة يجب أن تحدث ... فالأثر يبلغ الاشارة (يومي) الفكرة كي تقرأ ، أي أن الأثر هو اشارة جزئية أو متجزئة وليس لها صفة موضوعية وانها تؤشر فعلا في تقدم مستمر ... فالأثر هو ليس تظاهرا للحقيقة بل عكس ذلك لأنه يكشف نفسه بعيدا عن شكله الحقيقي.

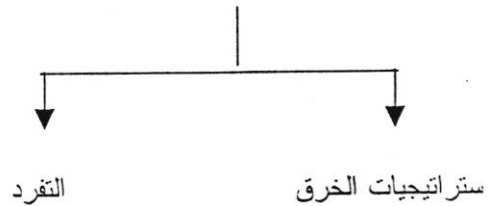
وتشير الدراسة بأن العمارة اللاكلاسيكية تشمل فكرة القارئ في هويتها ، أنها تقترح قراءة جديدة بعيدة عن نظام القيم الداخلية للعمارة التاريخية ، فالقراءة تخلق مستوى عاليا من المؤشرات أكثر من مستوى المعاني والتعبير وضمن هذا السياق فأن الشكل المعماري يكتشف كموقع للابتكار أكثر من تمثيلها لعمارة أخرى ، وأن عملية التحويرات هي تكنيك مفتوح النهاية وليس ستراتيجية متوجهة لهدف ، أنها لا تعتمد على المعرفة المشتقة من القيم الكلاسيكية وهذا ما يولد ستراتيجية جديدة فالعمارة في الوقت الحاضر ترى كعملية (Process) ابداعية لشيء مصنع في الماضي مع حاضر مستقبلي.

ويكمن التناقض الظاهري في العمارة في خلعها عن موضعها لجوهر العمارة المعتمد على التموضع والاستقرار (To Dislocate that which it located) فالتناقض الظاهري يعتبر أساسيا بالنسبة للإزاحة أي إزاحة العمارة عن معاني اللجوء والوظيفة ولكن بدون محوها فالعمارة المزاحة يجب أن تكون في نفس الوقت حضورا وغيابا.

2- دراسة جينكز The Architecture of Jumping : Universe / 95

ركزت هذه الدراسة على عمارة التعقيد ونظريات التعقيد التي تطورت في الستينات وعلى التوجهات الحديثة التي استندت على القيم المنبثقة في الكون والعمارة الكونية ولغاتها التعبيرية المختلفة ، فبالنسبة للقواعد الأساسية لنظرية التعقيد العلمية فأن الكثير هو المختلف (More is Difference) أي أن الأشياء تدفع الى حدودها القصوى وفجأة تنظم نفسها بمستوى عالي جدا ، وان الاعمال الابداعية لا تنتج من الحداثة والتحديث بل بتوحيد التجاوزات والحالات المختلفة الذاتية وأن الفكر ظاهرة موجية تتركب من مجموعة موجات والتي تحتوي على مجموعة حالات متناقضة معا بدون تدمير إحداها الأخرى . وتطرح الدراسة فكرة التحول القطبي والتغير المفاجئ وكذلك مفهوم العمق التنظيمي وهي ستراتيجيات إعتدها المعماريين المعاصرين لخلق أشكال من التواصلية ويعتبر الابداع هو الموازنة بين حافتي التنبؤ والعشوائية ، أي أن النظام يدفع بعيدا عن التوازن الى حدود ما بين النظام والفوضى والى قطب التحول لاغنايه بالإمكانات.

يتضح مما سبق أن هذه الدراسة أشارة الى صيغ تحقيق النتائج التواصلية مستعرضة اللغات التعبيرية المتنوعة في العمارة الكونية ... وكيفية الابتعاد عن المألوف موضحة الاستراتيجيات المعتمدة من قبل المعماريين للوصول الى نقطة الانحراف وبهذا فأنها تفسر الفعل التواصلية عبر مفردتين هما :



- **ستراتيجية الانفصال** : لكي نعرف الانفصالية علينا الاصرار على فكرة الحدود والتمزيق والتقاطع فالمشروعين السابقين يوظفان عناصر مختلفة لهذه الاستراتيجية التي تأخذ شكل الاكتشاف النظامي للفكرة ... فأن الهياكل والسياق في مشروع (Trascript) والتراكيب والتكرار في مشروع (De Lavillette) تمثل اكتشافات متلاحقة غير مجردة.

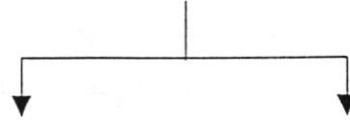
- **الحدود القصوى Limits** : المتعة لا تأتي من النظر الى الابنية والاعمال التاريخية بل من تعريتهم وتجريدهم وكشفهم ضمن النهايات والحدود القصوى.

- **التنويت Notation** : ان الصيغ المختلفة للتنويت الموظفة لتفكيك عناصر ومركبات العمارة تهدف الى جشع الهيمنة التي تخرج عن نظريات العمارة بالرغم من عدم إمكانية تسجيل كامل التعقيد في الظاهرة المعمارية من خلال صيغ التنويت الرياضية او المنطقية .. فأن تطوير التنويت المعماري يرتبط مع التجديد المعماري والحضاري أي عندما تتجرد (تتعري) العناصر التقليدية للعمارة وتنتهك القوانين الكلاسيكية ... فستراتيجية الانفصال ترفض التركيب أو الكلية بمعنى أن المشروع لا يصل مبتغاه أبدا وتستمر العملية .

وفي هذه الاستراتيجية لا يمكن للجزء أن يصبح كلية مكتفية ذاتيا ... فكل جزء يقود للآخر وهكذا .

يتضح مما سبق أن هذه الدراسة تناولت مفهوم الانفصالية كاستراتيجية تصميمية لخلق النتائج التواصلية إلا أنها اعتمدت على مبدأ الانتهاك مستندا على فكرة الانفصال كنفويض للكلية والشمولية في خلق العمل. وبهذا فالدراسة تفسر الفعل التواصلية من خلال:

يتضح مما سبق بأن هذه الدراسة ركزت على فكرة القراءة كتحدى لفكرة العمارة كصورة عبر تغيير طريقة تمثيل الاشكال للمعنى مستندا على مفهوم الاثر والنوصية وبهذا فأنها تنظر للفعل التواصلية من خلال مفردتين هما :



تحدي الأنظمة القائمة واقتلاعها طرح بنية فكرية جديدة

4- **طروحات برنارد جومي Architecture and Disjunction / 1997**

هذه الدراسة مدخل لمنهجية جومي التي تكشف على ان العمل في الحدود القصوى (الحافة) يقودنا الى استراتيجية الانفصال وهي تطوير للعمليات التحويلية كالتكثيف والاقحام والتحول والتراكب والانحراف واللامركزية . فالانفصال يقودنا الى رفض الكلية وهي تأكيد على طروحات ايزنمان حول العملية الكتابية (Process) فمحاولات جومي لتوسيع النظام المعماري هي الانتهاك للقوانين والحدود المعمارية . وأنه يستورد طرق المونتاج واعادة الحل في الافلام السينمائية ليتحدى التمثيل الكرافيكي التقليدي بفضل قوة وتأثير البقاء الزمني ... فالافلام تقدم الامكانيات السودية القصصية وامكانية إظهار العلاقة الغير اعتيادية بين الحدث والفضاء .

ومن أبرز ما جاء في نظريته :

- **النظام** : فكرة النظام تواجه تحديا كبيرا وتدفع الى حافتها بين النظام والفوضى في مشاريعه (مثل دي لافيت وترانسكربت) فكلا المشروعين لا يمتلكان البداية والنهاية وهي عمليات تتناقض للتكرار ، والانحراف يفوق الوصف ضمن مصطلحات التحولات الداخلية المستمرة.

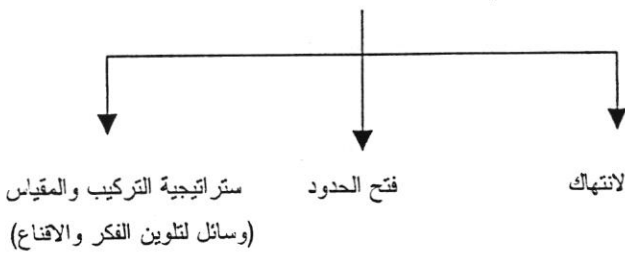
6- دراسة (Refusing Architecture) / 93

: Mark C. Taylor

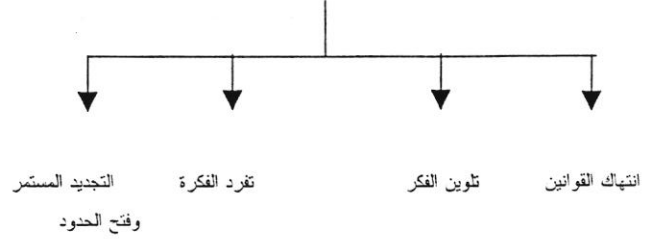
أشارت هذه الدراسة بان متعة العمارة لا ينتج من غياب قوانينها بل في حرقها وان التراكب (Super Position) هو استراتيجية الاختلافات التي تقاوم الكلية كما في العمارة الحديثة فتراكب الانظمة في لافيليت لا يعني الوحدة بل تمزيق الالتحام المنطقي وزعزعة الثبوتية والاستقرار.

فجومي يرفض النظرة الرمزية للعمارة كملجأ ... ويحور محل انتاج المعنى من المعمار الى القارئ المتعمد فالمعنى لا ينتج بل يكتشف . ويوضح استراتيجية ايزمان باعتماده على المقياس باعتباره الوسيلة لتقديم الزمن الى الفضاء في العمارة والذي استخدمه في مشروع روميو و جوليت لخلق فكرة معمارية معقدة معتمدا على Process of Scaling.

وأن التهكم والانتهاك يعني إنشاء أشكال لا صورية باقتلاع الهياكل فاله (Fally) في لافيليت بدأت بشكل مكعب أجريت عليها عمليات الانحراف (Deviation) وهي تجاوز للأنظمة العقلانية للوصول الى نظام اجمالي جديد



استهدفت مناقشة الدراسات المعمارية استكشاف أبرز المستويات التي اعتمدها تلك الدراسات في وصف مفهوم التواصلية ، وبشكل عام تبين بأن هذه الطروحات تنظر الى المفهوم في ضوء جوانب متنوعة ومتباينة تتبلور في مستويات محددة ، فبينما ركزت دراسة مايكل براون على المستوى التخاطبي للرسالة

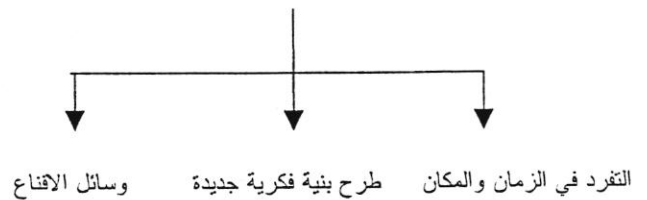


5- طروحات John 93 / Preplications:

هذه الدراسة تركز على مفهوم المختلف لدى ديليوز مستندا على تكنيك ايزمان في التحولات الطيبة في مشروع (Robestock Park) ويعتبر الطي الوسيلة التقنية التي يستعملها المعمار لترجمة المفاهيم المتغيرة لإنتاج حالات من التفرد للزمان والمكان.

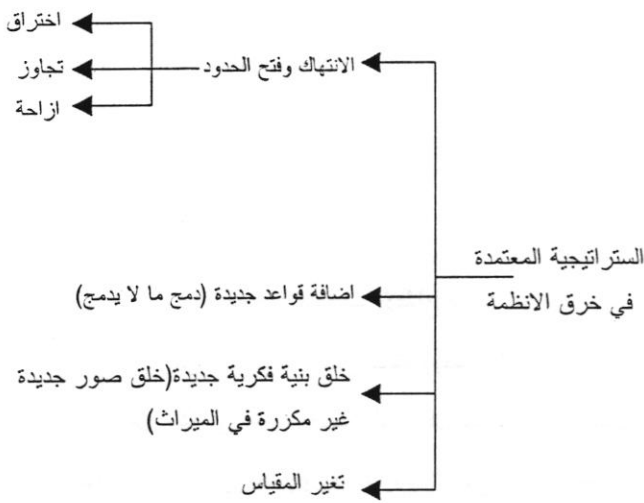
فالطي هو فن لرؤية شيء غير مرئي ، شيء ما ليس موجودا الآن . لأن الخطوط غير المنتظمة والمستويات الملتوية الناتجة عن عمليات الطي والتي تثني السطح لا تترجم فضاء مترابطا يبدو وكأنه ينساب على ما يجاوره وبذلك يعطي إمكانيات لقراءات جديدة.

فكرة ديليوز عن التعقيد في التنويع والانحراف يقودنا الى السؤال التالي ، ما الذي يشوش الفضاء ، أنه يشمل فكرة المختلف والمتفرد أي شيئا لا يمكن قراءته بسهولة والذي يسمح للشكل بالتححرر من القيم المقيدة والتحرير المستمر للقيمة من أنظمتها التقليدية وهي محاولة للوصول الى قراءات جديدة للنسيج الحضري.



2- المفردة الثانية : الاستراتيجية المعتمدة في خرق الأنظمة المتداولة

وصفت أغلب الطروحات المعمارية السابقة الاستراتيجيات المعتمدة بضوء جوانب متعددة في خرقها للأنظمة فمنهم من اعتمد على استراتيجية تغير المقياس والتراكب ومنهم من اعتمد على استراتيجية الانتهاك وفتح الحدود، وقد برزت الحاجة الى ابراز هذه الجوانب بلورتها في مفردة أساسية شاملة من مفردات الاطار ، وقد تشكلت هذه المفردة من المؤشرات والفقرات التفصيلية التالية :



3- المفردة الثالثة : صيغ التفرد والتحديث للفكر المعتمد

أشارت بعض الدراسات بصورة واضحة الى صيغ التفرد منها دراسة ريجمان التي استندت على مفهوم المختلف لدى ديليز في حين ركزت المجموعة الأخرى ضمناً على صيغ التفرد والتحديث وقد رزت الحاجة لظهور هذه الجوانب وبلورتها في مفردة شاملة وقد تشكلت هذه المفردة من المؤشرات والفقرات التالية :

المعمارية واليات تحقيق التمييز من خلال مفاهيم التكثيف والاستعارة والانزياح فأن دراسة جيكنز تركز على الاستراتيجيات المعتمدة من قبل الرواد المعاصرين لبناء النتائج التواصلية ، وتهدف دراسة ايزمان الى طرح بنى فكرية جديدة في تمييز العمارة الكلاسيكية عن اللاكلاسيكية ، وتطرح دراسة جومي فكرة الحدود والتحديات الجديدة في العمارة ومن خلال مناقشة هذه الدراسات تبين بأنها طرحت جوانب كثيرة ومتنوعة شملت أربعة محاور رئيسية وهي :

1- طبيعة الإجراءات المعتمدة في تكثيف وتوضيح الفكر المعتمد (تلوين الفكر).

2- الاستراتيجية المعتمدة في خرق الأنظمة المتداولة.

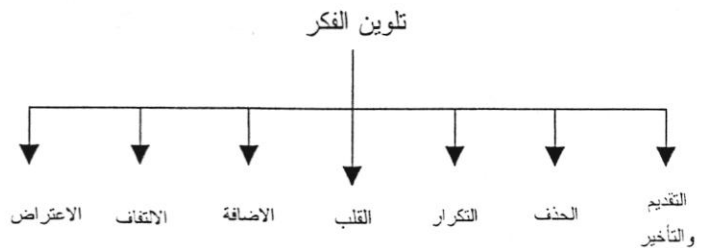
3- صيغ تفرد الفكر المعتمد.

4- أسلوب الإقناع والتفاهم.

ويتم توضيح أسلوب تشكيل هذه المفردات ما يلي :

1-المفردة الأولى : تلوين الفكر

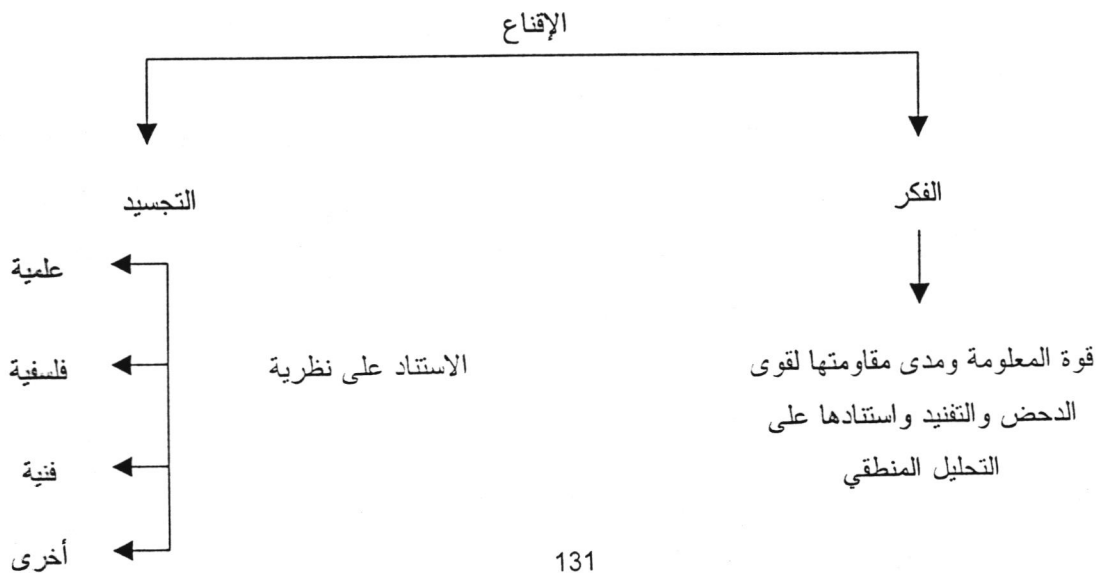
وتعني الإجراءات المعتمدة في توضيح الفكر المعتمد وتكثيفها حيث أشارت دراسة مايكل براون الى أن الأبنية التواصلية تتميز عن سابقتها (التداولية) بكونها أكثر معانيا ومدلولية في محتواها الحضاري ، ولتوضيح مؤشرات هذه المفردة تمت الاستعانة بالدراسات الأدبية منها دراسة (د. انعام فائق محيي) والدراسة المعمارية التفصيلية لبرنارد جومي ، وتم تعريفها من خلال تحديد أهم العوامل المرتبطة بها والتي تضمنت ما يلي :





4- المفردة الرابعة : أسلوب الإقناع والتفاهم

طرحت مجمل الدراسات وبصورة ضمنية ان كل عمل إبداعي هو مختلف وليس كل مختلف هو عمل إبداعي وهنا تبرز ضرورة أسلوب الإقناع والتفاهم ، كون التواصلية تستند على الانزياحات والانزياح عن المؤلف قد يسبب الانقطاع ، وقد برزت الحاجة لتوضيح المؤشرات والفقرات الفرعية التفصيلية لهذه المفردة :



الخلاصة والاستنتاجات

الاستناد الى مجموعة من المعايير والنماذج وقواعد السلوك والتفاهم ولو فقد الإقناع والبرهان حدثت الانقطاع.

6- وفرت الدراسات المعمارية قاعدة أساسية استثمرت لبناء إطار نظري أكثر شمولية ووضوحا على الرغم من عدم بلورتها لمفردات أساسية واضحة يمكن من خلالها وصف المفهوم وأسلوب تحققها ومقارنتها بالمتداول.

7- تم بلورة ثلاثة مؤشرات أساسية لتحقيق الفعل التواصلي وهي :

- أسلوب الإقناع والفهم المتبادل (الإقناع الكامن في المعلومة).

- قوة المعلومة وجدتها. - خرقها للأنظمة السائدة.

أما المفردات الأساسية التي شكلت الإطار الخاص لمفهوم التواصلية كإستراتيجية إبداعية فهي :

- تلوين الفكر . - الإستراتيجية المعتمدة في خرق الأنظمة المتداولة .

- صيغ التفرد . - أسلوب الفهم والإقناع .

وقد ارتبطت كل منها بجوانب أكثر تفصيلية وبعدد من المؤشرات التي تصف هذه الاستراتيجية.

المصادر العربية :

1- الصفدي ، مطاع (نقل للعقل الغربي) ، دار الانماء القومي ، بيروت ، 1992 .

2- بونتا ، خوان بابلو (العمارة وتفسيرها) ، ترجمة سعاد عبد علي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1996 .

3- فضل ، د. صلاح (النظرية البنائية في النقد الادبي) ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1987 .

1- النتاج التواصلي : هو النتاج الإبداعي الذي يمثل نقطة تحول في نمط التفكير ومؤشر لرؤية جديدة، تؤدي بعد عملها بإسهامات أخرى الى تأسيس نظم جمالي أو معرفي جديد يختلف جذريا عما سبقه ... ويتحقق بالانزياح المتمثل بخرق القوانين المتداولة والتحرر من القيم والقواعد والأعراف السائدة ويستند على عامل الإقناع العقلي في المعلومة فورا كل نظرية للفعل التواصلي هناك نظرية من البرهنة.

2- الحداثة تعني فكر مختلف وهي تجاوز للأصل لإقامة مملكة المختلف ... وهي متصلة بالحدث من حيث علاقتها بسببولة التاريخ لكنها منفصلة من حيث انزياحها النوعي نحو خصوصية الظرف الآني .

3- اللغة المتداولة هي نوع من أنظمة الأخلاق السائدة وهي تستند على أداة الأمر أكثر من أداة الفكر فأداة الأمر تعني أوامر الفعل والنهي والتوجيه فهي تداولية مكررة أما أداة الفكر فهي اختراع لغة خاصة من قبل صاحب الفكر أو الفن وهي أشبه باكتشاف حقيقة علمية التي تقلب نظاما معرفيا كاملا.

4- التواصلية ترتبط بالشعرية من حيث خرقها للقوانين المتداولة ولكنها تختلف عنها في حيث اعتمادها على عامل الإقناع الكامن في المعلومة وسبل بنائها ، فالتواصلية هي أداة فكر لطرح مواقف فكرية جديدة مما يؤدي الى انبعاث لغات تعبيرية جديدة أما الشعرية فهي تطوير للغة التعبيرية السائدة بهدف طرح جانب جمالي في عملية التلقي.

5- تستند التواصلية على عامل الإقناع والبرهان ومما لا شك أنه لا يمكن لأية تواصلية أن تقوم دون

Rajchman, John (Perplications) in Reworking Eisenman, Academy Edition, U.K. 1993.

4- الجادري ، رفعت (حوار في بنوية الفن والعمارة) ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، 1995 .

5- الشبخلي ، نيران (الشعرية في العمارة العربية المعاصرة - اعمال راسم بدران) اطروحة ماجستير - قسم الهندسة المعمارية - الجامعة التكنولوجية ، 1998 .

6- رزوقي ، غادة موسى (فكر الابداع في العمارة) رسالة دكتوراه - قسم الهندسة المعمارية - كلية الهندسة - جامعة بغداد ، 1996 .

المصادر الاجنبية :

- 7- Brawne , Micheal (From Idea to Building) , Butterworth - Heinemann LTD, 1992 .
- 8- Eisenman, Peter, (Re:Working Eisenman) Academy Edition,U.K., 1993.
- 9- Weigley, Mark (The Architecture of Deconstruction / Derrida's Haunt) , The Mit press, Cambridge, Massachusetts, London , England , 1996.
- 10- Jencks, charles, (The Architecture of Jumping Universe), Academy Edition, U.K., 1995.
- 11- Tschumi, Bernard (Architecture and Disjunction) The Mit Press, Cambridge, 1997.
- 12- Antoniades, Anthony C, (Poetics of Architecture) Van Nostrand Reinhold, New York, 1990.
- 13- Mark, C. Taylor (Refusing Architecture) in RE working Eisenman, Academy Edition, U.K. 1993.